هذا العـــــذاب ...

الأستاذ راشد رستم

دخل الغابة ينشد الوحدة الهادئة الهادية ، فرآها أول ما رأى فى صمت الجذوع وتحملها ، ثم تمثلها عند تساقط الاوراق واستسلامها ، وفى السكون الشامل الذى يحيط به ، وفى اللون الاخضر القاتم الذى يغشاه ، ثم سمعها فى أنين الغابة الداوى ، ولاقاها عند الغدير الصغير الجارى ، ورآها فى قاع مجراه الصافى كامنة بين الحصا الأبيض الناعم ، ثم شاهدها فى تهدل الاغصان واضطرابها ، وفى رعشة الاوراق المتحيرة ذات الحفيف المحزن ، ووجدها ساكنة فى الاعشاش الخاوية ، ولمحها عالقة باجنحة الطير المتناقلة وهى تبيت ، وفى آخر أشعة الشمس الصفراء وهى تغيب .

***

جلس فى تلك الظلال القاتمة وحيداً بين الشجر ، ينظر إلى السماء الناعسة يستنجدها وحيها المهيب . أو يستودعها سره العجيب . وقد بدت فروع الأغصان مع الاوراق على صفحة السماء وقت هذا الغروب فى لون من سواد كئيب ، كأنها (دنتلة) الحزن على صدر أملس رائع أسيف . قد صبغته نيران الزفرات والتنهدات بلون الشفق الوردى الهادىء صدر واسع عميق جذاب تحنو عليه شفاه الرحمة والاشفاق بقبلات العطف والحنان تترك فيه أثاراً من حرارة التضامن الكامن فى الصدور بين قلب حنون وآخر محزون . .

***

لم يفكر فى شىء ، فقد أحاطت به الافكار من كل جانب ، قام هارباً من تهافت الافكار متعمقاً فى الغابة يطلب الهدوء الأصيل فى حضنها الظليل ، ومن هاجمته افكاره اعجزته تفكيراته ، وقد يضيع بها أو هو يبقى بينها حيران زمانا حتى تجذبه احداها فتشغله عن سواها ، وهكذا يفر المرء من عذاب الى عذاب

***

على أنه وقد وجد سكينته عند الطبيعة فقد سلبها منه وآلمه فيها ابن الطبيعة — طلع عليه من خلال الاشجار اطفال يلعبون ، والناس ملائكة صغاراً شياطين كبارا

كمن له الصغار لما رأوه مقبلا هائما ، انتظروه اذ ظنوه سارحا هادئا . فاجؤوه يحسبونه خائفا ، فلما وجدوه رابطا ثابتا ، عادوا يخشونه متحفزا ثائرا . ثم تنبه هو من تيهه فوقف باسما ، يدعوهم لاعبا مسالما ضاحكا ، ولكنهم من الرجفة الاولى يفرون مستنجدين صارخين . فانجدهم أهل لهم فى الغابة يتطوعون ، يسألونهم عن أمرهم وما دهاهم من مفترس أو روح شرير — فكانوا يبكون صامتين ، يشيرون الى مكان قريب

***

مفترس ! وحش ! روح شرير ! !

ليس فى المكان إلا ما فى الغابة من شجر ووحشة ودوى طويل .

خرج عليهم « الوحش » يدعوهم الى الهدوء والاطمئنان . فتلقوه مؤنبين معرضين ، فتولى عنهم فى غيظ وكمد . مختفيا فى الغابة الممتدة الواسعة . تلك الغابة الغنية التى هو سيدها ومالكها والتى يهبها صدقة يسمح بحطبها وحياتها ومتاعها حلالا طيبا للسائلين والمحرومين

يحيط به الظلام . وحسبك تلك الحال السحرية باعثة على الشجن ، ومثيرة لكامن الجنون .

وهكذا تستطيع النجمة ، وهى على سواحل المحيط الهادى أن ترسل أشعتها إلى أطراف العالم ، وتنشر شباكها فى جميع الأقطار .

***

هذا وللعشق النجمى خصائص أخرى ، ولكننا ضربنا عن ذكرها صفحا ، لأنها تعد فى المرتبة الثانية من الأهمية ، وحسبنا ما ذكرناه وصفا لأعراض ذلك المرض . . استغفر الله بل تلك العاطفة القاهرة ، التى استرقت قلوب الناس من شباب وكهول ، وصفدتهم بسلاسلها وأغلالها . وقد أسلموها قيادهم طائعين خاضعين . .

لقد تحسب أيها القارىء أن فيما ذكرناه غلوا أو ان نصيب الخيال فيه أكثر من نصيب الحقيقة . . وفى الحق أننا ما كنا نعلم أن لهذا الشىء وجوداً أو أن شره قد استفحل ، وخطره قد اشتد إلى هذا الحد . لولا أن صديقنا العزيز (رشاد) قد أصابه ذلك السهم ، فأحزننا مصابه . ولقد تتاح لنا قريباً فرصة أخرى فنحدث القارىء بحديث ذلك الصديق وإن كان حديثاً أليما . . .